الافتتاحية

اليسار العربي عشيّةَ الحرب

لم ينقسم المثقفون اليساريون العرب على مسألة كما هم مُنقسمون اليوم على المسألة العراقية (أكتبُ هذه الكلمات قبل دقائق، ربّما، من الهجوم الأميركيّ المؤكَّد على العراق). فحتى قَبْل حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ لم نَشْهد بياناتٍ يساريّةً عربيّةً بمثل هذا التناقض في ما بينها، ولا تظاهراتٍ بمثل هذا التشتّت داخل الساحة النضالية المحلية نفسها. فمن جهة، يَنْعت مثقفو ومناضلو «اليسار القوميّ» مثقّفي ومناضلي «اليسار الديموقراطيّ» بالانشقاقية، وبعدمِ فهمِ أولويّات الصراع التي يجب أن تكون (في رأي الفريق الأول) ضدّ الولايات المتحدة أساسًا. ومن جهة ثانية يرمي الفريقُ الثاني الفريقَ الأوّل بالغوغائية، وبتناسي جرائم النظام العراقيّ؛ بل قد يتهامس أقطابُ «الديموقراطيّ» بشائعات عن قبضِ بعضِ أقطاب «القوميّ» أموالاً من هذا النظام لإصدارِ بيانٍ أو تسييرِ مظاهرةٍ تأييدًا للعراق.

الواضح أنّ الطرفيْن كليْهما محقٌّ في بعض مواقفه. فاليسار القوميّ مصيب في اتّهام اليسار الديموقراطيّ بالانشقاقية، ولسانُ حاله أنّ شعار «لا للحرب» (ولا شيء غير ذلك) هو الشعار الذي حَشَدَ الملايينَ في العالم مِنْ خلفه. ذلك أنّ هذه الملايين تَعْلم أنّ الحرب على العراق لا علاقة لها بتخليصه من الديكتاتورية، ولا بإرساء الديموقراطية، وإنّما بأمورٍ أخرى من قبيل: الهيمنة الأميركية على (ثاني) أكبر مخزون للنفط بهدف التحكُّم بأسواق العالم وبسياساته، وفرْضِ المنظور الشارونيّ للسلام في المنطقة. ومن ثمّ فإنّ أيَّ مساواةٍ ما بين العدوانية الأميركية والديكتاتورية العراقية ــ على نحوِ ما يذهب «القوميّ» ــ تشتيتٌ لجهود أنصار السلام في العالم وتبريرٌ غيرُ مقصود لحملة الولايات المتحدة على العراق والأمة العربية عامةً. ويتسلّح اليسارُ القوميّ في حجّته هذه ببيانات صادرة عن مثقفين، بعضُهم من اليسار الديموقراطيّ، تَختلط فيها الرغبةُ الصادقةُ في تجنُّب الحرب بالاستسلامِ الكاملِ للقَدَر الأميركيّ وبالجهلِ المطلقِ لأهداف العدوان؛ فالمطالبة بتنحّي الرئيس العراقيّ لن يوقف الغزوَ (اليوم أعلن بوش الابن أنّ الولايات المتحدة ستَدْخل العراق حتى لو غادر صدّام!) بل سيُزيل بعضَ النتوءات من أمامه فقط، على طريق استكمال المشروع الأميركيّ في ضرب إيران وسورية ولبنان وكلّ مَن يقف ضدّ الشرق أوسطيّة.

كما أنّ اليسار القوميّ (الذي يضمّ قوميين عربًا وماركسيين يغلّبون مفهومي «الوحدة العربية» و«تحرير كامل فلسطين») مصيبٌ في رمي زميله اليسار الديموقراطيّ (الذي يضمّ الاتجاهات نفسَها، مع تغليبٍ لمفهومي «الديموقراطية» و«المجتمع المدنيّ») بازدواجية المعايير: فـ«الديموقراطيّ» مثلاً لم يُمانِعْ (بل رحّب) في أن يَسير في تظاهراتِ دعمٍ للانتفاضة تَحْمل صورًا لياسر عرفات، رغم مسؤولية هذا الأخير عن إيصال القضية الفلسطينية إلى هذا المنحدر البائس وزَجّه بمناضلين بارزين (أمثال أمين عام «الشعبية» المناضل أحمد السعدات) في السجن. وكانت ــ وما زالت ــ مبرّراتُ اليسار الديموقراطيّ لهذا الموقف من السلطة الفلسطينية شبيهةً بمبرّرات اليسار القوميّ لموقفه من السلطة العراقية («بعيدٌ الشبَهُ» بين السلطتيْن، يقول اليسارُ الأول!)؛ فعرفات في رأي «الديموقراطيّ» يتعرّض لهجوم إسرائيل، والأولويةُ إذن هي لمواجهة إسرائيل. ولكنْ ألا يتعرّض صدّام اليوم لهجومِ أميركا، يردّ «القوميّ»؛ أفلا تكون الأولويةُ إذنْ لمواجهة أميركا؟! (التتمة ص ١٠٤)

سماح إدريس

(تتمة الافتتاحية المنشورة ص ١)

ولكنْ بالمقابل (كما يقول فيصل القاسم) يبدو «الديموقراطيّ» محقّاً في أن يرى في مبالغة زميله «القوميّ» في التركيز على أولوية الصراع ضدّ أميركا عودةً جديدةً إلى الشعار القديم الباهت: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» (رغم أنّ الأوّل، كما أشرنا أعلاه، يتبنّى هذا الشعارَ عينَه في ما يخصّ الصراعَ الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ!). وهو أيضاً مصيب في أن يَردّ جزءاً كبيراً من مأساة الشعب العراقيّ منذ عقود إلى سياسات النظام العراقيّ، من قمعٍ وقتلٍ وقصفٍ وتعذيبٍ ونفيٍ وغزوٍ لأراضي جيرانه وعنادٍ دونكيشوتيّ إزاء الإملاءات الأميركية (يتلوه امتثالٌ مُطْلق لها... ولكنْ بعد فوات الأوان). و«الديموقراطيّ» محقٌّ جدّاً في أن يشدِّد على العلاقة الوثيقة التي سَبَقَ أن ربطتْ نظامَ الرئيس العراقيّ بالولايات المتحدة وبالشركات الأميركية حين كان «الفُرْسُ» هم الأعداءَ و«عربُ نجد» هم الحلفاءَ (تُرى ألم تأتِ معظمُ أسلحة الدمار الشامل العراقية، الحقيقية والمزعومة، من أميركا نفسها؟). وأخيراً، ألا يحقّ لأقطاب اليسار الديموقراطيّ أن يتقزّزوا ممّا يُشاع (أو يُشيعونه) عن إثراءِ بعض «القوميين» من مالِ الشعب العراقيّ الجائعِ والمحاصَر؟

الساحة الثقافية اليسارية، إذن، في حيص بيص. أَوَيُمْكن إلاّ أن نَشْعر جميعُنا بالحيرة والاضطراب؟ مستحيل، وبخاصةٍ بعد أن استغلّ بعضُ أعضاء الفريقيْن المسألةَ العراقية لتصفيةِ حساباتٍ قديمة (بعضُها يعود إلى خلافاتهم داخل الأحزاب التي جَمَعتهم يوماً). ولكنّ أساس تلك الحيرة وذلك الاضطراب يعود إلى أنّ الرئيس العراقيّ نفسَه لم يَتْركْ أمام المثقفين والمناضلين اليساريين («قوميّين» أو «ديموقراطيين») فرصةً لأن يَمْشوا خلفَ رايته، رغم رفضهم أن يَمْشوا خلف راية أعدائه.

ومع ذلك، ومع ذلك... فإنّ هذه الحرب ليست ضدّ النظام العراقيّ، كما تَعْلمان أيُّها الفريقان العزيزان! إنّها ضدّ العراق: ضدّ شعبه، وعلمائه، وجيشه، وشعرائه؛ ضدّ أكراده، وشيعته، وسنّته، وآشوريّيه، وقوميّيه، وشيوعيّيه. وهي حربٌ ضدّ لبنان، والمقاومة، والانتفاضة، وسورية، وإيران... بل ضدّ الكويت والسعودية ومصر. إنّها حربٌ لن يستفيد منها إلاّ «إسرائيل» وبعضُ النُّخَب المتواطئة في الوطن العربيّ.

سيَرْحل النظامُ العراقيّ، عاجلاً أم آجلاً. وسيأتي نظامٌ أسوأ، يَقْمع الناسَ باسم «ضرورات المرحلة» و«حاجات السلام.» وسيَبْقى الأيتامُ، والمشوَّهون، والأرضُ الخراب. وعلى جثثِ مئاتِ الآلاف من العراقيين الأبرياء سيستعدّ الجنودُ الأميركيون، وحلفاؤهم الصغار، لغزوٍ جديد.

سماح إدريس

بيروت

لائحة ثانية من المثقفين الموقّعين على البيان (انظر الغلافَ الأخير) حتى ظهر ٢٠٠٣/٣/١٩:

د. ماهر جرّار، مهنّد أبو الحسن، دايفيد بَرْسَميان، عمر برغوثي، أحمد أبو حسين، موسى حوامدة، ريم نويري، خالد بركات، نعيم عبد الوهّاب، عرب لُطفي، د. عبد الفتّاح يغمور، محمد نجاتي طيّارة، أمير مخّول، رضوان القضماني...